٩٠٠٠٠٣٣-٢

أحباس المغاربة

في الحرمين الشريفين

بحث مقدم

لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية

الذي تنظمه جامعة أم القرى

بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

في مكة المكرمة عام ١٤٢٢هـ

حسن الوراكلي

أستاذ الدراسات العليا

بجامعتي أم القرى بمكة المكرمة

وعبد الملك السعدي تطوان (المغرب)

تقديم

لما كان الحبس ـ باعتباره صدقة موصول أثرها في حياة صاحبها وبعد الممات – قربة من القرب التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، واقتداء بفعل رسول الله ﷺ الله عليه بتحبيس حوائط سبع [1]، وتأسيا يعمل الصحب الكرام من ذوي الميسرة أمثال عمر بن الخطاب [2]، وعثمان بن عفان، وخالد بن الوليد، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن عمر وغيرهم فيما حبسوا من أموالهم صدقات مؤبدة لاتباع ولا توهب ولا تورث فقد حرص المسلمون في مختلف أقطارهم ومع توالي أعصارهم على التبرع بملهم، عقارا كان أو عينا، بصرف منفعته – على التأبيد – على من يستوفيها أأشخاصا كانوا أ, مؤسسات ذات توجه خيري.

وكشأن كافة أبناء الأمة الإسلامية في مختلف الأصقاع كانت للمغاربة، ومنذ فترة باكرة من تاريخهم في كنف الإسلام، عناية ملحوظة بهذه السنة النبوية الرشيدة تمثلت فيما دأبوا على التصدق به من نقد وعقار تجري منافعهما فيما يسبلونه عليها من وجوه الخير المتعددة.

وكشأن غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية في مختلف الأصقاع تعدى المغاربة بهذه السنة حدود مجتمعهم ينشدون التقرب إلى الله بها في مختلف الآفاق، وخاصة في بيته العتيق بالبلد الأمين، وفي حرم نبيه الكريم ﷺ الله عليه وسلم بطيبة الطيبة، وفي أولى القبلتين المسجد الأقصى الذي بارك رب العالمين حوله.

وليس من غرضنا في هذا العمل أن نؤرخ لعناية القوم بهذه السنة النبوية الرشيدة، ومبسط القول في مظاهرها وآثارها، فهذا باب واسع يتشعب ما يلتمسه الباحث من ورائه وإنما غرضنا أن نرصد من

---

[1] جاء في سيرة ابن هشام أن مخيريق الحبر اليهودي الثري كان عرف الرسول ﷺ قبل البعثة مما ورد عنه في كتب بني إسرائيل. وقد أسلم وما زال يشارك في الغزوات حتى استشهد في إحداها. وكان أوصى قبل ذلك بأمواله – وكانت عبارة عن بساتين أو حوائط سبعة – لرسول الله ﷺ الذي وقفها فكانت أول وقف في تاريخ الإسلام.

[2] ورد في باب الوقف في صحيح كتاب الوصايا – في صحيح لبخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب بخيبر أرضا فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به؟ فقال عليه السلام: (إن شئت حبست أصلها) فتصدق بها عمر – إنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث – في الفقراء.

تلكم العناية ما اختص بها أصحابها الحرمين الشريفين في مختلف العصور مما من شأنه أن يسهم في الإبانة عن جوانب من تاريخ الأحباس وآثارها في المجالات الدينية، والعلمية، والاجتماعية في المدينتين المقدستين.

وقبل الشروع في ذلك نود الإشارة إلى أمرين إثنين وثيقي الصلة بما سنذير من حيث في الفقرات التالية عن أحباس المغاربة في الحرمين الشريفين:

أولهما / مصطلح (الحبس) الذي أخذ به المغاربة والأندلسيون في تسمية (الصدقة الجارية)، هو — لغة — كل ما وقف من صدقة، والجمع أحباس وحبائس. وأصله من قول رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين سأله عن نخل له كان يريد أن يتقرب بصدقتها إلى الله تعالى (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرها)[1] وقوله ﷺ عليه وسلم (من أحتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه ورويه وبوله في ميزانه يوم القيامة)[2]، وقرفه فقهاؤهم فقال ابن عبد البر بأن الحبس أن (يتصدق الإنسان المالك لأمره بما شاء من ربعه ونخله وكرمه وسائر عقاره لتجري غلات ذلك وخراجه ومنافعه في السبيل الذي سبلها فيه مما يقرب إلى الله عز وجل، ويكون الأصل موقفا لا يباع ولا يوهب ولا يورث أبدا)[3]، وعرفه ابن عرفة بأنه (إعطاء منفعة شيئ ما مدة وجوده، لازما بقاؤه في ملك معطية ولو تقديرا)[4].

والتعريفان معان لا يخرجان عن المعنى المحوري للوقف، وهو تحبيس العين وتسبيل ثمرتها. وتضح مما سبق أن (الحبس) و (الوقف)، في اللغة، مصطلحان مترادفان لشيئ واحد، وكذلك أمرهما في العرف الشرعي[5].

---

(1) صحيح البخاري كتاب الوصايا (باب الوقف) رقم ٢٧٧٢.

(2) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير — باب من احتبس فرسا في سبيل الله — رقم ٢٨٥٨ — الناشر: بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع — الرياض (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، وسنن النسائي (كتاب الخيل — باب علف الخيل) ج٦ ص٢٢٥-الناشر: دار إحياء التراث العربي (بيروت).

(3) الكافي لابن عبد البر القرطبي ج٢ ص٥١. الرياض (١٩٧٣).

(4) شرح حدود ابن عرفة الموسوم (الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية) لأبي عبد الله محمد الأنصاري الرصاع. تحقيق: د: محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري ج٢ ص ٥٣٩. دار الغرب الإسلامي — بيروت (١٩٩٣).

(5) نفس المصدر ج٢ ص٥٣٩.

ثانيهما أن اعتناء المغاربة بالأحباس، سواء داخل مجتمعاتهم أو خارجها، شمل نوعين إثنين:

أولهم ما يحبس على المؤسسات العامة ذات الطابع الديني، أو العلمي، أو الإجتماعي، وهذا النـــوع هو المعروف عنهم بالأحباس العمومية.

والنوع الثاني هو ما تواضعوا على تسميته بـــ (الحبس المعقب)، وهو المعبر عنه عند أهل المشـــرق بالوقف الأهلي أو الذري، ويصرف ريعه على أناء المجلس وعلم حفدته ومن يقدر الله تعالى وجودهـــم من بعده.

ومع اقتناعنا، من جهة، بتداخل دوافع التحبيس وغاياته عند المحبسين مما يترتب عنه تداخل مجالاتـــه الدينية، والعلمية، والاجتماعية، ومن أخرى، بهيمنة الدين على كافـــة مجـــالات الحيـــاة في المجتمـــع الإسلامي، فإننا إذ نتوجه، الآن، لرصد أحباس المغاربة في غير مجال من حياة أهل مكة المكرمة والمدينـــة النبوية سنعمد – لإجراءات منهجية، وبملاحظة السمة الغالبة على كل مجال – إلى إفراد كـــل مجـــال بفقرة من البحث، وذلك على النحو التالي:

١ – المجال الديني:–

تمثل ما حبس الغاربة على هذا المجال فيما تصدقوا به من دور وجنات ومواضع جعلـــوا عوائدهـــا وغلاتها ومنافعها في السبل التي سبلوها فيه لخدمة الحرمين الشريفين من حيث:

أ – تحبيس المصاحف:

ولدينا أخبار وافرة عن ذلك، ومنها أن السلطان أبا يعقوب يوسف المريني (ت ٧٠٦هـــ) حبـــس على الحرم المكي مصحفا وصف لضخامته بكونه حمل بعير، وقد حمله عام ٧٠٣هـــ ركـــب الحـــاج المغربي إلى مكة في ربعة كبيرة. وقد وصف لنا ابن خلدون هذا المصحف بقولـــه: (مصحـــف رائـــق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في حرمه، وعمل غشـــاءه مـــن بديـــع الصنعة، واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلـــق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الأصونة عليه)[1].

---

[1] تاريخ ابن خلدون ج١ ص٣٥٣. ط مصر (١٢٧٩هـــ).

وذكر ابن مرزوق أنه وقف على المصحف المذكور في قبة الشراب بالحرم المكي، وقال:

(وقد رأيت بمكة شرفها الله المصحف الذي بعثه أبو يعقوب بخط ابن حسن، وكان وجهه محلى بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه، وبقي في قبة الشراب يقرأ فيه احتسابا، وقد قرأت فيه في أعوام)[1].

كما أن السلطان أبا الحسن المريني (ت ٧٥٢هـ) بعث إلى الحرم المكي مصحفا كتبه بيده وتولى تنميقه وتذهيبه مشاهير الوراقين كما تولى ضبطه وتهذيبه أكابر القراء، بينما تفنن مهرة الصناع في تغشية وعائه بصفائح الذهب وترصيعه بالجواهر واليواقيت (واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلائف الحرير الديباج وأغشية الكتان)[2].

ولم يكتف السلطان أبو الحسن ببعث هذا المصحف، بل شفع ذلك بمبلغ مالي قدر بستة عشر ألف وخمسمائة دينار ذهب لشراء الضياع بالمشرق لتحبيسها على القراء في المصحف[3].

وذكر ابن الوردي في تاريخه أثناء حوادث عام ٧٤٧هـ (أن أبا الحسن كتب من مدة قريبة بخطه ثلاثة مصاحف، ووقفها على الحرمين الشريفين وعلى حرم القدس)[4] ثم أضاف بأن أبا الحسن جهز مع المصاحف الثلاثة عشر آلاف دينار اشترى بها أملاكا في الشام ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة[5].

وعلى غرار هذا الصنيع وجدنا السلطان عبد الله بن إسماعيل يبعث إلى المسجد النبوي ثلاثة وعشرين مصحفا بين كبير وصغير كلها محلاة بالذهب مرصعة الدر والياقوت، ومن جملتها المصحف الذي يقال بأن عقبة بن ناقع نسبه من المصحف العثماني[6].

---

(١) المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق. تحقيق الدكتورة مارية خيسوس فيغيرا ص٢٥٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٧ ص٢٦٥، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصري ج٣ ص١٢.

(٣) الاستقصا ج٣ ص٧١٢.

(٤) تتمة المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٣٤٨.

(٥) نفس المصدر ج٢ ص٣٤٨.

(٦) الاستقصا ج٤ ص٧٤.

ب – تحبيس أموال وعقارات وضياع على خدمات الحرمين ومسجد قباء وغيره:

ولدينا أخبار وافرة عن ذلك، ومنها أن السلطان إسماعيل (ت ١١٣٩هـ) حبس نصف مستفاد غلة زيتون غابة حمرية بمكناس على مكة المكرمة والمدينة النبوية بنسبة الثلث للأولى والثلثين للثانية. ولا شك أن حظا غير يسير من هذا المستفاد كان يصرف على خدمات الحرمين الشريفين وغيرهما من المساجد[1] كما أن حظا آخر منه كان يصرف– فيما نقدر– على الفقراء والمساكين من المجاورين المغاربة وغيرهم.

ومن ذلك أن السلطان محمد بن عبد الله (ت ١٢٠٤هـ) حبس مبلغ ألفي دينار ذهبا من مستفاد مرسى تطوان يصرف على كل من له وظيفة بالمسجد النبوي أو بيت الله الحرام من أعوان، وأئمة، ومدرسين، ومؤذنين، وفراشين، ووقادين، وغيرهم من ذوي الوظائف، كل على قدر مرتبته، وأول من يعطى له: الطلبة الذين يقرؤون المصحف)[2] كما حبس رحمه الله مبلغا آخر قدره ستة آلاف ريال فضة لأهل الحرمين من مستفاد بعض الثغور[3] يصرف منه على القيمين على المسجد النبوي وعلى القيمين على مسجد قباء و مدرسته، وعلى أبناء بيت الأنصار، وعلى الفقراء والمساكين برباطي سيدنا عثمان وعبد القادر الجيلاني. ويدفع من ذلك المبلغ مائة ريال للشيخ[4] الذي يتولى الإشراف على توزيع الحبس وتستمر له ولعقبه من بعده إذا اتبعوا منهجه.

أما بالنسبة لمكة المكرمة فقد حبس السلطان محمد بن عبد الله ألف دينار من مستفاد مرسى تطوان، يصرف منها مبلغ قدره تسعمائة دينار على القيمين على الحرم الشريف من أئمة، ومؤذنين، ومدرسين، وفراشين، ووقادين، وغيرهم[5].

واهتم ذوو اليسار من المغاربة بتحبيس بعض ما يملكون من عقار وغيره على الحرمين المكي والنبوي، وذلك بغاية الإسهام في تسديد نفقات القيام بخدماتهما ووظائفهما الدينية. ومثل لذلك

---

(١) الحوالة العباسية – مخطوط رقم ١١ ومسكروفيلم ١٢٠– قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الحوالة العباسية ميكروفيلم رقم١٣٠ – قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

بالحبس الذي أوصى أحد أبناء مدينة تطوان علم ثلاث وستين ومائة وألف للهجرة بصرف نصفه على بيت الله الحرام بمكة المكرمة. وهذا ما تعلق بذلك في نص وثيقة التحبيس:

(الحمد لله، عهد وأوصى السيد عبد الجليل بن السيد محمد الجعيدي التطاوني أنه يشهد لله بالواحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة والتبليغ، وأنه ميّ حدث به حدث الموت الذي لا بد منه ولا محيص لمخلوق حي عنه فإنه يخرج عنه بعد وفاته جميع الثلث الواحد من جميع متخلفه من قليل الأشياء وكثيرها، جليلها وحقيرها، العقار وغيره، ويوقف في أصل ويقبض خراجه، وقسم الخراج المذكور على نصفين، النصف الواحد يبعث لبيت الله الحرام الأعظم الذي بمكة شرفها الله ... يكون ذلك حبسا مؤبدا حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه وسائله غدا، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، عهدا وإيصاء صحيحين تامين)[1].

٢ – المجال العلمي:-

إن العناية بالعلم والتشجيع على طلبه وتحصيله ونشره والنفع به من أعظم القربات إلى الله تعالى، ومن أفضل الأعمال التي يجزل بها ثواب العبد عند ربه تعالى. لذا وجدنا التحبيس على طلاب العلم مدارسه وكتبه في مقدمة ما أولاه المسلمون اهتمامهم.

على تعقب العصور. ولما كان كل من الحرمين الشريفين مهبط النور الباهر، نور الوحي الإلهي الحكيم الذي انبعثت منه علوم الإسلام، شرعية وغير شرعية، فقد كان من البدهي أن يغدو المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة منذ أول يوم إضاءة فيه آفاق الجزيرة بنور الإسلام خليتين علميتين تهوي إليهما أفئدة حملة العلم وطلبته فيضربون في الأرض من كل فج عميق، تريد طائفة منهم تحصيله واستيعابه، وتريد أخرى بثه ونشره، وتريد ثالثة اتصال تدفقه ودوام إشعاعه.

من ثم نبعت العناية عند المسامين من قادة وعلماء برعاية الحركة العلمية في الحرمين الشريفين، وذلك بتأسيس أربطة لإيواء المشتغلين بطلب العلم ونشره، وترتيب صدقات جارية عليهم، وتحبيس كتب، بل خزائن برمتها عليهم وعلى كافة الراغبين في الاطلاع والاستفادة العلميين، يريدون بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، وفضله العميم.

---

[1] تاريخ تطوان لمحمد داود ج٧ ص٦٥ ط. معهد مولاي الحسن- تطوان . المغرب).

وقد كان للمغاربة اعتناء موصول بهذا المجال[1] لم يقصروه على معاهدهم، بل حرصوا على أن يتخطوا به حدودها إلى غيرها من معاهد العلم في أقطار الإسلام بالمشرف[2] وخاصة في بلاد الحرمين الشريفين، وهو ما سنعرض أمثلة في الفقرة التالية:-

أ – التحبيس على المشتغلين بالعلم في الحرمين:-

دأب سلاطين المغرب وخاصة سلاطين الدولة العلوية على إرسال صرة كان من جملة ما تحويه أعطيات جزيلة للمشتغلين بالعلم إقراء وتحصيلا. ونذكر من أمثلة ذلك ما كان يوجهه السلطان إسماعيل من صلات سنية للعلماء المنتصبين للتدريس بالحرمين الشريفين. واحتذى حذوه في ذلك حفيده السلطان محمد بن عبد الله الذي كان يسنى الجائزة للعلماء على نحو ما صنع من الشيخ مرتضى الزبيدي حين وصله بخمسمائة دينار ذهبا وساعة قيمتها خمسمائة دينار بعثها له ما ركب الحاج الفاسي على ١١٩٧هـ. وإلى ذلك حبس السلطان المذكور مقدار كبيرا من المال على طلبة الفقه من المذاهب الأربعة وعلى العلماء الذين كانوا ينهضون بمهمة الفتوى الشرعية[3] كما أنه حبس مبالغ مالية طائلة على العلماء والطلاب من أتباع المذاهب الفقهية الأربعة الدين يتحلقون لقراءة (الفتوحات الإلهية) و (الجامع الصحيح) بالمسجد النبوي الشريف[4].

ب – تحبيس الكتب المكتبات:-

فمن المعروف حرص العلماء والمؤلفين على إهداء كتبهم ومؤلفاتهم أو تحبيسها على الحرمين الشريفين. وفي هذا الصدد يقول الغنامي في رحلته الحاجية (ما من عالم صنف كتابا في المشرف أو بالسند أو الهند أو العراق أو غيره من الأمصار إلا ويصرف نسخة للمدينة رجاء الإقبال على كتابه)[5].

---

(١) من أقدم خزائن الكتب التي حبست على طلاب العلم خزانة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (ت ٥٩٥هـ) وخزانة أبي الحسن الشاري الغافقي السبتي (ت ٦٤٩هـ).

(٢) مثل ماحبسه بعض ملوك الدول العلوية وبعض العلماء كابن الخطيب على طلبة العلم بجامع الأزهر. انظر (الترجمانة الكبرى في أخبرا المعموربرا وبحرا) للزياني ص ٦٤.

(٣) إتحاف الناس بأخبار خاضرة مكناس لابن زيدان ج٣ ص٢٣٣.

(٤) ركب الحاج المغربي لمحمد المنوني ص٢٤ ط. معهد مولاي الحسن – تطوان (١٩٥٣).

(٥) رحلة القاصدين ورغبة الزائرين مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط ٥٠٥٦.

وأقدم ما عرفنا مما حبسه المغاربة من كتب ومكتبات على الحرمين أو الأربطة والمدارس بمكة والمدينة جملة من كتب الفقه المالكي التي حبسها محمد بن عبد الله بن الفتوح المكناسي إمام المالكية بالحرم المكي الشريف عام ٥٨٨هـ على طلبة الفقه والمذهب المالكيين في الحرم الشريف ووضعت في الركن المالكي منه، وكان من هذه الكتب المحبسة كتاب (المقرب) لابن بي زمنين في ستة مجلدات[١].

ثم عرفنا، في القرن السابع، عالما مغربيا آخر هو أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر العبدري الميورقي (ت ٦٨٧هـ) الذي أقام في الطائف، وسكن مكة , وحبس مكتبته على طلبة العلم، وكانت هذه المكتبة غنية وحافلة بكتب نفيسة في مختلف الفنون والمعارف لا سيما السير التراجم والتواريخ، وهو ما يستفاد من وصف تقي الدين الفاسي لها بأنها (كثيرة مشتملة على فوائد جمة)[٢] أفاد منها فيما كتب عن تاريخ مكة المكرمة. وكذلك أفاد منها أبو الفضل محب الدين ابن فهد في بعض ما ألف من كتب في التاريخ[٣].

وفي القرن الثامن وجدنا الشيخ عبد الواحد الجزولي، وكان ذا معرفة بالحديث والقراءات، أكب على نسخ العلم وكتب بخطه كتبا كثيرة حبسها كلها على طلبة العلم برباط دكالة وغيرهم بالمدينة المنورة[٤].

وفي القرن الثامن كذلك وجدنا الشيخ الفقيه الأديب أبا عبد الله محمد بن محمد الفرناطي (ت ٧٥٤هـ)، وكان جود القراءات السبعة، وأحكم الفرائض والحساب حتى لم يكن في المجاورين وغيرهم بالمدينة المنورة مثله في ذلك، يحبس كتبه على طلبة العلم ويجعل مقرها في المدرسة الشهابية[٥].

كما وجدنا في هذا القرن الشيخ إبراهيم التلمساني (ت ٧٦٦هـ)، وكانت (له كتب جليلة في الفقه والأصول والحديث واللغة وغير ذلك[٦] يحبس أكثرها بمكة المكرمة، ويحبس بعضها على المدرسة

---

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمير للفاسي ج٢ ص٧٤ ط٢- مؤسسة الرسالة (١٤٠٦هـ).

(٢) نفس المصدر.

(٣) (قطر الطائف ومؤرخوه) لحمد الجاسر مجلة العرب ج٢ س٢ (شعبان ١٣٨٧هـ) ص٩٨-٩٩.

(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور لأبي محمد عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي (ت ٧٦٩هـ). ص٦٧ طبع بعناية حسن محمد علي شكري – دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع.

(٥) نفس المصدر ص١٥٧.

(٦) نفس المصدر ص١٧١.

الشهابية بالمدينة المنورة[1].

وفي القرن التاسع وجدنا أبا طيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٣٢هـ) يحبس مكتبته العامرة بالنفائس والأعلاق على العلماء والمتعلمين وعلى عامة الراغبين في الاطلاع والقراءة والمطالعة، وكان السخاوي فيمن وقفوا عليها[2]. كما وجدناه يقف كذلك عام ٨٧٨هـ في رباط المغاربة على (مكتبة علمية فيها عدد من الكتب)[3]، ويخبرنا أن أحد المجاورين المغاربة المشتغلين بالعلم من المقيمين بهذا الرباط، واسمه صالح بن عبد الله السجلماسي، وضع للمكتبة المحبسة بالرباط فهرسة بجميع محتوياتها[4] لكي يستفيد منها نزلاء الرباط المذكور من العلماء والطلاب المقيمين للمجاورة أو الوافدين للحج والعمرة. وقد فرقنا منهم قاسم بن الحسين التلمساني[5]، وأبي الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني[6]، وأحمد الزواوي[7]، وعيسى الزواوي[8] وأبا الحسن على القلصادي (ت ٨٩١هـ)[9].

وقد ضلت هذه المكتبة موجودة بالرباط المذكور يفيج من كتبها طلاب العلم بالاطلاع والقراءة والنسخ في القرن الحادي عشر، فقد أخبرنا أبو سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ) أنه وقف عليها في البيت الذي خصص لها بالرباط[10]، ثم انقطعت عنا أخبارها بعد ذلك.

وفي هذا القرن كذلك وجدنا أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي (ت ١٠٨٠هـ) كان اشتهر بين

---

(١) نفس المصدر ص١٧١.

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ج٣ ص٣١١ ط. دار مكتبة الحياة – بيروت.

(٣) نفس المصدر ج٣ ص٣١١.

(٤) نفس المصدر ج٣ ص٣١١ – ٣١٢.

(٥) رحلة القلصادي لأبي الحسن على القلصادي الأندلسي (ت ٨٩١هـ) تحقيق د. محمد أبو الأجفان ص١٣٤ ط. الشركة التونسية للتوزيع.

(٦) نفس المصدر ص١٣٥.

(٧) نفس المصدر ص١٣٥.

(٨) نفس المصدر ص١٣٥.

(٩) نفس المصدر ص١٣٤ – ١٣٥.

(١٠) الرحلة العياشية (ماء الموائد) لأبي سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ) ج٢ ص٩٨ ط. مصورة – دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر – الرباط.

المجاورين المغاربة في مكة المكرمة بالعلم وجمع الكتب – يتوفر على مكتبة حافلة كما بعض ما اشتملت عليه من كتب بخط يده وبعضها الآخر بالشراء، جعل مقرها في مأواه بالحرم المكي الشريف. وحسن وإن كنا لا نملك خبرا بتحبيسها فإن في وصف أبي سالم العياشي لمحتوياتها ما يفيد بوجود كتب محبسة ضمنها، كما أننا لا نشك في أن شيوخ العلم وطلابه كانوا يفيدون من محتوياتها العلمية النفيسة، وكانت – على ما أخبر أبو سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ) في رحلته – (نحو الثمانين سفرا، فيها من نفائي الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها.. كان منها أجزاء من المدونة الكبرى التي هي أم الدواوين الفقهية.. ومنها (عيون الأدلة) لابن القصار، وكان يثني عليه كثيرا في بسط أدلة المذهب والانتصار له والرد على المخالفين مع التحقيق التام إلى غير ذلك من الكتب، منها ما هو ملكه ومنها ما هو من كتب الوقف)[1].

وفي القرن الثاني عشر وجدنا السلطان سيدي محمد بن عبد الله (ت ١٢٠٤هـ، وكان له اهتمام بالغ بالعلم وكتبه وحملته، وحرص على المشاركة في بثه والتأليف في فنونه، يحبس على الحرمين الشريفين كتاب علمية وافرة طلت إلى عهد المؤرخ أحمد الناصري (١٣١٥هـ) قائمة العين والأثر[2].

وقد اتصل، بعد ذلك، اعتناء المغاربة بتحبيس الكتب والمكتبات على الحرمين الشريفين الخزائن العلمية بمكة والمدينة حتى إذا كان العصر الحديث وجدنا طائفة من العلماء تسارع في الخيرات بهذا المجال الهام من مجالات الأحباس، فتحبس مكتبات بكاملها أو كتبا مفردة على مكتبة الحرمين، ونمثل لهؤلاء بـ:

أ – الشيخ محمد العزيز الوزير (ت ١٣٣٨هـ)، جاور بالمدينة المنورة، وكان معنيا بالعلم يقيده ويقرئه، جماعا لدفاتره ومصنفاته تألفت منها مكتبة حافلة بغرائب المخطوط ونوادر المطبوع حبسها على من عينه من أفراد أسرته بالمدينة المنورة، ثم نقلت، بعد ذلك، إلى مكتبة الحرم النبوي[3].

ب – الفقيه العالم السيد محمد الصباغ التطواني (ت ١٣٣٨هـ) الذي حبس كتبا على المسجد

---

(١) نفس المصدر ص٩٧.

(٢) الاستقصا ج٨ ص٧٤.

(٣) فهرس مكتبة محمد العزيز الوزير. إعداد د. عبد الرحمن بن سليمان المزيني مجلة عالم المخطوطات والنوادر مج١ ع ٢ (رجب – ذو الحجة ١٣١٧هـ) ص٢٦٥.

الحرام بمكة المكرمة، و لم يتيسر له إرسالها حتى قيض الله تعالى لذلك حفيده الأستاذ مصطفى الصبـــاغ الذي حملها معه في حجته عام ١٣٨٤هـــ وسلمها لمكتبة الحرم المكي الشريف[١].

ج – الشيخ العالم السلفي محمد المنوني (ت ١٤٢١هـــ) الذي حبس عام ١٤١٩هـــ على مكتبـــة الحرم النبوي نسخة من الجزء الأول من الترمذي قام بتسليمها الأستاذ الباحث عبد اللطيف الجيلاني[٢].

ج – المجال الاجتماعي:–

وهذا مجال واسع لفعل الخيرات وإنجاز المبرات بالصدقات الجارية التي يبقى أثرها بعـــد أن ينقطـــع عمل صاحبها بموته، وإدراكا لهذه المكانة التي للصدقة الجارية عند الله تعالى حرص المغاربة مثلما حـرص غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية في مختلف أصقاعها على تحبيس شيئ مما أفاض الله عليهم به من نقـــود وعقار وضياع ورباع على الفقراء والمساكين والمرضى وذوي العاهات ومن إلى هـــؤلاء و أولاؤك. و لم يحصر المغاربة، شأنهم في ذلك شـــأن غيرهـــم من أبنـــاء الأمة الإســـلامية قـــاطبة، أحباسهم علـــى هذا المجال في نطاق بلادهم[٣]، وإنما تخطوه إلى بلاد الحرمين يبتغون المزيد من فضل ربهـــم ورضوانـــه. وكان لبعض سلاطين المغرب في عهد الدولة العلوية خاصة قدم سبق في هذا المجال الخيري من مجـــالات التصدق التسبيل على مختلف المرافق الاجتماعية ي الحرمين الشريفين. ونمثل لذلك بما يلي:–

أ – تحبيس السلطان إسماعيل (١١٣٩هـــ) على الحرمين الشريفين غلة زيتـــون الأرض الشاســـعة المترامية الأطراف الواقعة بأحواز مدينة مكناس والمعروفة بـــ (حمرية) وكانت تشتمل – حسب ما أفـاد الزياني في كتابه (البستاني) عـــلى (مائة ألف شجرة من الزيتون)[٤].

ب – تحبيس السلطان محمد بن عبد الله عام ١١٨٩هـــ فنادق ثلاثة من فنادق فاس على الفئـــات

---

(١) تاريخ تطوان ج٧ ص٦٨. وقد أخبرني أخي الشيخ إسماعيل الخطيب في منزلي بظاهر تطوان بحمل الأستاذ مصطفى الصباغ كتب جده المحبسة إلى مكتبة الحرم المكي.

(٢) اطلعني عليها محل الولد الباحث الطلعة المجاور الأستاذ عبد اللطيف الجيلاني في زيارتي مكتبة الحرم النبوي في صفر عام ١٤٢٠هـــ.

(٣) انظر أمثلة من ذلك في كتاب (أوقاف مكناس في عهد مولي إسماعيل) للأستاذ رقية بلمقدم. جرآن ط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية (١٤١٣هـــ).

(٤) الإتحاف لابن زيدان ج١ ص١٧٤.

المريضة والمعوزة من أهل الدينة المنورة[1]. وقد بين رسم التحبيس أن مستفاد فندق (الصاغة) يوزع سنويا على المقعدين، وأن مستفاد فندق (أعشيش) يقسم على العمي، وأن مستفاد فندق (النجارين) قسمة بين المجاورين من أهل إقليم (سجلماسة) وغيرهم.

كما أوصى السلطان المذكور عام ١١٩٠هـ بجزء من المال الذي حبسه على أهل المدينة المنورة يوزع سنويا على أبناء بيت الأنصار، وبجزء آخر لشرفاء (الينبوع)، وبجزء ثالث للسادات البكريين والعمريين وغيرهم[2].

بل إننا وجدنا من بين أميرات البيت الحاكم في عهد الدولة العلوية من يشارك في التحبيس على مكة والمدينة، فقد ذكرت المصادر التاريخية أن زوج السلطان المولى إسماعيل خناثة بنت بكار حبست عدة أحباس على مكة في حجتها عام ١١٤٣هـ[3].

وكان للمجاورين المغاربة وأبنائهم من ذوي اليسار مساهمة في هذا المجال الحبسي، يدلنا على ذلك صنيع أحد هؤلاء المجاورين، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون الذي حبس أحباسا كثيرة على فقراء المدينة المنورة[4].

وكان من أبرز مظاهر اهتمام المغاربة بهذا المجال تلك الرباطات التي عرفت لهم في كل من مكة المكرمة والمدينة النبوية لإيواء فقراء المجاورين وضيوف الرحمن وطلاب العلم وغيرهم.

وقد عرفنا من هذه الرباطات ثلاثة: واحدا في المدينة المنورة، كان يعرف باسم (رباط دكالة)، وهو ما قد يدل على أن نزلاءه أو غالبيتهم ومحبسه أو محبسيه كانوا من أهل هذا الإقليم المغربي، وعرفنا من المقيمين به محمد المكناسي، وعبد الله البسكري، وعد الواحد الجزورليي. وجميعهم اشتهروا، مع ضيق ذات اليد، بالمجاهدة والصبر[5].

أما في مكة المكرمة فقد عرفنا بها رباطين أثنين، أحدهما كان يعرف باسم (رباط السبتية)، و لم

---

(١) الحوالة العباسية ميكروفلم رقم ١٢٠ – قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) ركب الحاج المغربي ص٢٤ – ٢٥.

(٣) مخطوط – (درة السلوك) نقلا عن (ركب الحاج المغربي) للأستاذ محمد المنوني ص٢٣ – ٢٤.

(٤) نصيحة المشاور ص١١.

(٥) ترجمته في العقد الثمين للتقي الفاسي ج٦ ص٢٠٦ – ٢٠٧ رقم ٢٠٨٢، ج٨ص١٢٨ رقم ٣١٠٤.

نقف فيما رجعنا إليه من مصادر تاريخية على معلومات تفيد في التعريف به. وثانيهما الرباط الذي عرف بأسماء ثلاثة: هي: رباط الموفق، ورباط عثمان بن عفان، ورباط المغاربة، وكان الذي حبسه محسن من أهل مصر، هو القاضي الموفق علي بن عبد الوهاب الإسكندري (ت ٦٢٤هـ) (على الفقراء من أهل الغرب المتعبدين ذوي الحاجات العاجزين) حسب رسم التحبيس الذي نثبت نصه فيما يلي: -

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم. هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضي الفقيه الموفق الأمين جمال الدين طقز ولي أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن القاضي السعد الأمين بن القاسم عبد الوهاب بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي الفرج العدل بالأعمال المصرية رضي الله تعالى عنه وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط على فقراء العرب الغرباء المتعبدين ذوي الحاجات المجردين العاجزين، ليس للمؤهلين فيه حظ ولا نصيب، تقبل الله ذلك منه وأثابه عليه بالإحسان. وقف ذلك وحبسه بجميع حقوقه وقفا صحيحا محرما مؤبدا، فمن غير ذلك أو بدله فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين. جرى ذلك في سنة أربع وستمائة).

ومع أن محبس هذا الرباط — كما رأينا — من أهل مصر،فإن تحديد رسم التحبيس جنسية المستفيدين من الرباط، وهم المجاورون من (الغرب) — والمقصود بهم أهل المغرب- وإضافته إلى المغاربة في أحد أسمائه الثلاثة، ووقوعه — حسب بعض المصادر التاريخية — في زقاق كان يعرف باسم (زقاق المغاربة)، وتولى المجاورين من أهل المغرب شؤون تسييره عبر تاريخه الطويل. كل ذلك يدل على مبلغ من كان يوليه المغاربة لهذا المجال الاجتماعي في دائرة اعتنائهم الشامل بالأحباس في بلاد الحرمين حتى حين لا تكون مبادرة التحبيس من قبلهم على نحو ما في هذا المثال. ومن المفيد أن نشير، هنا، إلى أن هذه الرباطات سواء ما كان منها في مكة أو ما كان منها في المدينة كانت تنهض بوظيفتين اثنتين بآن واحد، فهي، من جهة، تؤوي المعوزين والفقراء فتؤمن لهم السكن الغداء، ومن جهة ثانية، تستقطب العلماء وطلاب العلم فتتحول بوجود هؤلاء وهؤلاء تحت سقفها، وبفضل ما يكون بها من كتب محبسة، إلى معهد لبث العلم ونشره. وستفاد مما بين أيدينا من روايات تاريخية عن رباط المغاربة أنه كان، كبقية أو غالبية الرباطات، يجمع بين وظيفتين: إحداهما الوظيفة الاجتماعية، وهو وظيفته الأم، والثانية الوظيفة العلمية وقد سبق الإلماع إليها في الفقرة الثانية من هذا البحث.

أما من حيث الوظيفة الأولى فإننا نستطيع القول بأن رباط المغاربة كان كغيره من الرباطات يوفر لساكنيه وخاصة فقراءهم ما يسد حاجتهم من الغذاء والكسوة وما إليهما.

وكانت النفقة على ذلك تؤخذ من موارد الرباط، ومن صدقات المحسنين، كما أن سكانه من الفقراء والمساكين كانوا في مقدمة المستفيدين من أموال الصرة المغربية الوافرة الجزيلة وغيرها من العطايا والصلات التي دأب سلاطين المغرب من مثل أبي الحسن المريني، والسلطان إسماعيل، وابنه السلطان عبد الله، وولده السلطان محمد على بعثها مع ركب الحج لتفرق على أهل مكة والمدينة من ضعفاء ويتامى وأيامي وأرامل، وكذلك كانوا يستفيدون من الصرة التونسية التي كان يبعثها البايات حكام تونس مع ركب الحج لتوزع أموالها على فقراء الحرمين، ومن هؤلاء بعض سكان رباط المغاربة، بل إننا وجدنا في إحدى الحوالات رسم تحبيس ينص على أن يتولى شيخ الركب المغربي والأمناء توزيع مبالغ مالية على الفقراء والمساكين برواق سيدنا عثمان ورباط عبد القادر الجيلاني بالمدينة المنورة.

تلكم كانت لمحات من عناية المغاربة بالتحبيس على الحرمين الشريفين في مجالات ثلاث دينية، وعلمية، واجتماعية عساها أن تسهم في إغناء البحث حول تاريخ أحباس الحرمين بخاصة والمدينتين المقدستين بعامة.

وكتب عبيد ربه تعالى جار بيته الحرام

حسن بن عبد الكرم الوراكلي

بالبلد الأمين مكة المكرمة.

يوم الجمعة رابع وعشرين شوال عام واحد وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى ﷺ.

المصادر والمراجع

١ – إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس عبد الرحمن بن زيدان المكناسي.

٢ – أوقاف الحرمين الشريفين بالبلاد التونيسة ١٧٣١ – ١٨٨١. د/ التليلي العجيلي. منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات – زغوان – ١٩٩٨.

٣ – تاريخ تطوان

محمد داود المطبع المهدية – تطوان (المغرب)

٤ – الحوالة العباسية – ميكروفيلم رقم ١٢٠ – قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

٥ – رحلة القلصادي.

أبو الحسن علي القلصادي تحقيق د/ محمد أبو الأجفان. الشركة التونسية للتوزيع.

٦ – الرحلة العياشية ج٢ أبو مسلم العياشي ط. مصورة – الرباط.

٧ – رحلة القاصدين ورغبة الزائرين. عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي الغنامي مخطوط الخزانة الحسنية (م ٥٠٥)

٨ – ركب الحاج المغربي محمد المنوني مطبعة المخزن – تطوان (١٩٥٣م).

٩ – سنن النسائي:

ط دار إحياء التراث العربي – بيروت

١٠ – شرح حدود ابن عرفة الموسوم (الهداية الكافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية).

أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع تحقيق د/ محمد أبو الأجفان والطاهر المعموري دار الغرب الإسلامي – بيروت (١٩٩٣)

١١ – صحيح البخاري:

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل – ط بيت الأفكار الدولية للنشر و التوزيع – الرباط.

١٢ – الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ط. دار مكتبة الحياة – بيروت.

١٣ – كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري دار الكتاب – الدار البيضاء (١٤٠٥هـ).

١٤ – العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين

تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي مؤسسة الرسالة – بيروت (١٤٠٦هـ).

١٥ – نصيحة المشاور وتعزية المجاور

أبو محمد عبد الله بن محمد ابن فرحون قابل أصوله واعتنى به: حسين محمد على شكري دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع.